الفصل السابع

الأبوة والخضوع والمسايرة

مدخل

الإنسان كائن اجتماعي بالدرجة الأولى، ويشكل الدافع إلى الاجتماع أحد أهدافه الرئيسة، والذي يشبع من خلاله مجموعة أخرى هامة من الدوافع، كالدافع إلى الانتماء وإلى الحماية وإلى تأكيد الذات والحب والتقبل والمشاركة الاجتماعية.

وينتمي الفرد عادة إلى خلايا اجتماعية متعددة تشكّل في مجموعها محيطه الاجتماعي. وإن التطبيع الاجتماعي للفرد يستدعيه انصهار الفرد في الجماعة والالتزام بالمعايير الاجتماعية الموكلة إلى الجماعات المرجعية في مختلف اتجاهات الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية والخلقية. لذلك فإن الصراع بين الفرد والمجتمع غالباً ما يحسم لصالح مسايرة الجماعة، التي تحقق للفرد حاجاته ومطالبه، سواء على المستوى الفردي أم على المستوى الاجتماعي العام، وإن كانت هذه المسايرة تختلف حسب الجماعة، وحسب شخصية الفرد.

فالنسيج الاجتماعي الذي يتجلى في الحاجة إلى مصاحبة الآخرين، ضروري لحياتنا لأنه يزودنا باللغة والعادات، ويمنحنا

الأهداف والقيم، ولا شك أن قدراً من المسايرة يبدو ضرورياً لفاعلية النسق الاجتماعي، وإن الأهم هو أن يتمكن الفرد من تحقيق التوازن بين رأيه وموقفه الشخصي وسلطة الجماعة التي ينتمي إليها. فالمسايرة المفرطة والفردية التامة كلاهما يفضي إلى نتائج سلبية على الفرد والمجتمع.

ويتميز الإنسان العربي عموماً بارتباطه بوشائج اجتماعية قوية، يشكّل الارتباط الأسري أحد جوانبها الهامة، مما يستدعي التزامه بالمعايير والمفروضات السائدة. فكلما كان الفرد أكثر ارتباطاً بمحيطه الاجتماعي فإنه يخضع لمزيد من القواعد والمفروضات والثوابت التي يكون واجباً عليه الالتزام بها، ولعل طرق التنشئة الاجتماعية السائدة تعزز قبول تلك المعايير والالتزام بها، ومن ثمَّ الخضوع لها ومسايرتها.

ويحتاج المراهق إلى تنمية درجة من الضبط تكون حداً وسطياً بين المسايرة والخضوع التام لأحكام الآخرين واللامسايرة؛ فالمسايرة لها ملامحها الإيجابية في المحافظة على العناصر الأساسية للبناء الاجتماعي من تصورات وممارسات، إلا أنها تبدو سلبية إذا ما حدثت في مجال القيم الاجتماعية والأخلاقية التي تتسم بالسلبية. ولعل أهمية تناول هذا المتغير بالدراسة تنبثق من الإيقاع السريع للتغير الاجتماعي، والذي يثير غالباً الخلط والضياع النفسي فيما يتعلق بالقيم والمعايير الاجتماعية، وخصوصاً في ظلّ غياب الأب في مرحلة المراهقة، وهي المرحلة التي يسعى المراهق خلالها إلى تحقيق استقلاليته، ومن ثمَّ تحديد تقبله للقيم والمعايير الاجتماعية السائدة أو العكس.

تعريف المسايرة

تشكل المسايرة دعامة اجتماعية للنظام الاجتماعي، ولذا فإن مختلف المجتمعات قد حرصت على التطبيع الاجتماعي لأبنائها، والذي يعدُّ في جوهره تعليماً للمسايرة بأشكالها المختلفة؛ كمسايرة الأبناء للآباء، ومسايرة رب العمل ومدير الدائرة، وقد تكون المسايرة ضرورية في حياة المجتمع، إذ تقوم الجماعات المختلفة بتعليم الأفراد ضرورة مسايرة تلك المعايير. وهكذا تصبح المسايرة سمة نفسية تبدو في سلوك الفرد.

ففي كل وقت يمكن أن يواجه الشخص بمحاولة آخرين للتأثير في سلوكه واتجاهاته، وعليه أن يقرر إذا ما كان سيخضع لهذا التأثير أم سيقاوم، وفي قلب هذه العملية تبرز عملية الضبط أي الدرجة التي يشعر الشخص عندها بأن لديه قدرة السيطرة على حياته، في مقابل الدرجة التي يشعر بأن للآخرين قوة التأثير في سلوكه.

ويميز عبد الستار إبراهيم أنواعاً مختلفة من المسايرة منها:

- المسايرة الناتجة استجابةً لمواقف الضغط الاجتماعي.
- المسايرة حالةً عقلية دائمة وثابتة في الشخصية.
- المسايرة مجاملةً اجتماعية.

فالمسايرة هي سمة من سمات الشخصية، تتضمن حكم الفرد واعتقاده وتصرفه بما يتفق مع أحكام الجماعة وعقائدها وتصرفاتها، وترتبط الحاجة إلى المسايرة ببعض متغيرات الشخصية، إذ ترتفع لدى الأشخاص الذين يحتاجون إلى الاستحسان والتقبل من الآخرين، كما أنها ترتبط بتقدير الشخص لذاته؛ فالشخص ذو التقدير الذاتي

المنخفض ليس لديه إطار تصوري متطور لتقييم الموقف المثير، فهو يميل إلى المسايرة السلبية، إلا أن ذلك يتعلق بالعوامل الموقفية والمعرفية الأخرى.

والمسايرة بوصفها سلوكاً يكون حدوثها نسبياً يظهر في بعض الأوقات، ويرتبط غالباً بأزمان ومواقف معينة. وتعمل الظروف والخبرات الموقفية على الحد من حدوث سمة المسايرة، وتهيئ الفرصة لظهور سلوك مختلف. وهذا من طبيعة السمة التي تتنحى أحياناً لتبرز سمة جديدة أو سلوكاً جديداً سلبياً أو إيجابياً.

وحسب رأي البورت فإنه يتفرع من سمة المسايرة اثنتا عشرة سمة هي:

١- الإيثار (lturism).

٢- الحساسية الاجتماعية (Social Sensitivity).

٣- العطاء (Giving).

٤- التمركز حول الآخرين (Empathy).

٥- الاستقلالية (Independence).

٦- المسالمة (Peacefulness).

٧- التوحد (Integration).

٨- الانسجام (Consonance).

٩- التعاون (Cooperation).

١٠- الثقة الاجتماعية (Social Confidence).

١١- القبول (Acceptance).

١٢- التسامح (Tolerance).

openkanz.com

فالمسايرة متجذرة في المعايير الاجتماعية، وهي تعد دلالة على قوة تلك المعايير، ويخضع الفرد لمسايرة تلك المعايير ليجاري اتجاهات الجماعة التي ينتمي إليها.

وليست كل مسايرة إيجابية أو سلبية بصورة مطلقة، ويتبع ذلك الاختلاف حسب الزمان والمكان بين الأفراد في درجة الإلزام بالمعايير المختلفة، واختلاف المدى المتاح للفرد ليتبنى معايير الجماعة ومسايرتها قدر ما يشاء. مما جعل المسايرة مختلفة بين الناس، وبين الجماعات. وهكذا فإن المسايرة تغلب على المعايير الاجتماعية، وقد تكون إيجابية في وقت أو زمن أو لأشخاص في بيئة معينة، وليس في وقت آخر أو لأشخاص آخرين، وقد ترتبط المسايرة سلباً مع العملية الإبداعية، إذ تشكل ضغطاً يتصارع مع المرونة المعرفية الضرورية للتفكير الإبداعي.

إن لدى كل شخص درجة من المسايرة، والمشكلة هي الدفاع عن حق التوازن بين المبادرة الفردية والسلطة الاجتماعية.وما يثير الاهتمام هو المسايرة المفرطة (Over conformity) وتتجلى في الاهتمام الزائد بآراء الآخرين بوصفها معياراً للسلوك وأساساً للأحكام، وحين يصبح الفرد تواقاً بشكل مبالغ فيه للإثابات المتوقعة والمرتبطة بإظهار المسايرة بشكل يؤدي إلى فقدانه استقلاليته وملكاته النقدية.

ويزخر مجتمعنا العربي بالمعايير التي تقوم الجماعات المرجعية بالحفاظ عليها من خلال إلزام أفراد المجتمع بتنفيذها؛ لتحقيق الضبط الاجتماعي والحفاظ على سلطة الجماعة.

فعلاقة الفرد بالجماعة التي يتنمي إليها غالباً ما تتضمن نوعاً من الصراع بين ما تحقق له من الميل الطبيعي إلى الانتماء والتقدير

والأمن وغيرها من الحاجات النفسية، وبين ممارسة نوع من الاستقلالية والحرية، والمبادرات الفردية والقناعات الشخصية، فيكون على الفرد أن يتنازل عن بعض رغباته وقناعاته أو تأجيل تحقيقها إلى وقت آخر. فالعادات والتقاليد التي تكبل الفرد بالممنوعات والواجبات تحد من حريته في التفكير والعمل. مما يعزز وجود عدد من السمات السلبية كالتبعية والامتثال الخضوعي، وهما على ارتباط وثيق بتقييده المفرط بالقواعد والمفروضات الاجتماعية، وتدني روح المبادرة الفردية ومستوى الإنجاز بالنسبة إلى المسؤوليات المترتبة عليه، تجاه نفسه كفرد وتجاه مجتمعه.

ولا شك أن للمؤسسات التربوية الاجتماعية الدور الكبير في تشكيل شخصية النشء وتوجيه نموه، ولكن يبقى للوالدين الحظ الأكبر في عملية التنشئة؛ فالأسرة هي الحضن الاجتماعي الذي يحتوي الأبناء مدة أطول من الزمن.

ثمة ثلاثة نماذج أساسية لبحوث المسايرة تمثلت في دراسات مظفر الشريف (١٩٣٥)، وسولمون آش (١٩٥٢)، وريتشارد كرتشفيلد (١٩٥٤) وتجربة بيرن وسبنسر، وهي تجسيد لأسلوب المعالجة التجريبية للمسايرة باعتبارها ظاهرة سلوكية، وقد اعتمدت تلك الدراسات على دراسة تأثّر المفحوص بأحكام الآخرين في المحاولات العديدة، خلال استخدام مثيرات إدراكية خاوية وغير مشبعة بالدلالة بالنسبة إلى الفرد، كأشكال أو أطوال أم تكملة سلاسل أرقام، وقليل منها استخدم موضوعات لغوية أو اجتماعية، وقد أظهرت نتائجها تأثّر الآخرين بحكم الأغلبية الخاطئة من خلال تجارب تتضمن حكم الفرد على شيء معين بعد الاطلاع على رأي الأغلبية.

وقد عمد ريتشارد كرتشفيلد في دراسته (١٩٥٤) إلى تقييم

شخصية مفحوصيه، وقد توصّل إلى أن الشخص المستقل يمكن توصيفه بما يلي: (أنه قائد فعال، يضطلع بدور السيادة في علاقاته بالآخرين، يقنع الآخرين بوجهة نظره، فعّال ونشيط وقوي ومتحمس، يستمتع بالانطباعات الحسية والجمالية، تلقائي، واثق بنفسه ومستقل في حكمه)، في حين يتصف المساير بأنه (خضوعي، يحترم السلطة، ذو انطباع سطحي، يميل إلى فعل الأشياء التي يؤمر بها، ذو مدى ضيق من الاهتمامات، يتسم بالضبط الزائد، متردد في قراراته، يرتبك في مواجهة الظروف المختلفة، يفتقد إلى الاستبصار بدوافعه وسلوكه، قابل للإيحاء ويهتم بتقييم الآخرين له أكثر من تقييمه لذاته).

ويشير ماك ديفيد إلى أن المشكلة الكبرى في دراسة المسايرة هي نقص التعريفات الدقيقة والقاطعة، إذ يتم استخدام تسميات مختلفة لتوصيف أنماط عديدة تبدو متشابهة للتأثيرات الاجتماعية في سلوك الفرد، مثل (المسايرة والإيحاء والاقتناع والإذعان والخضوع والمحاكاة). ففي بحوث المسايرة عند آش وكرتشفيلد وجاكسون وغيرهم، نجد أن الاهتمام الأساسي هو الوقوف عند معنى محدد للمسايرة، وهو تغير الحكم الأكثر صحة إلى الحكم الأقل صحة، نتيجة ضغط اجتماعي يصطنع تجريباً وبمهارة شديدة. ويوضح كيسلر أن هناك ثلاث طرائق متميزة، يُستخدم مفهوم المسايرة ضمنها في التراث السيكولوجي وهي:

- المسايرة باعتبارها خاصيةً مستقرة في الشخصية.
- المسايرة باعتبارها تغيراً معرفياً ناتجاً عن ضغط الجماعة، وهو ما يسمى بالتقبل الشخصي.
- المسايرة باعتبارها نوعاً من الموافقة للجماعة، وهو ما يطلق عليه بالانصياع العام.

فالمسايرة ظاهرة سلوكية، يعرفها روكيتش (Rokeach) بأنها (حالة عقلية يتعلق وجودها بأنواع خاصة من الضغط الاجتماعي، وأحياناً قد تكون حالة دائمة ثابتة في الشخصية)، ويعرفها كيسلر بأنها تغيّر سلوكي أو اتجاهي يحدث نتيجة لضغط الجماعة الحقيقي أو المتخيل. ويعرفها ميرفن شو (Shaw، ١٩٧٦) بأنها اتفاق استجابة الفرد مع استجابة الأغلبية في الجماعة، ويعرفها حسن علي حسن بأنها تغيّر سلوك الفرد أو معتقده نتيجة ضغط الجماعة، وذلك يختلف عن الاتفاق مع رأي الجماعة.

ويفرّق كريش وكرتشفيلد بين المسايرة سمةً للشخصية والمسايرة سمةً لموقف، إذ يكشف كل فرد عن درجة من المسايرة كسمة لموقف في حياته الاجتماعية.

ويميز ويلز (Williz) بين نوعين من المسايرة: المسايرة الحركية التي ينصب الاهتمام بها على كمية التغير في حكم الفرد أو سلوكه نحو الوضع السائد في الجماعة، والمسايرة التي تتجلى في درجة الاتفاق بين استجابة الفرد والوضع الذي تتبناه الجماعة.

ويتسع مفهوم المسايرة ليشمل السلوك الظاهري المرتبط بمعايير الجماعة وهو ما يدعى بالخضوع، والسلوك اللفظي وهو المسايرة.كذلك فرق ميلجرام بين الخضوع باعتباره سلوكاً صريحاً والمسايرة باعتبارها سلوكاً لفظياً.

وقد ميز هولاندر وويلز (Hollander & Willis) بين اللامسايرة والمسايرة؛ فالمسايرة هي التغير باتجاه رأي الجماعة، أما اللامسايرة فتتضمن الاستقلال والمسايرة المضادة.

والمسايرة أو التغير هي عملية نفسية تقوم على حقيقة أن الفرد يتطلب إطار عمل ثابتاً، يتضمن نقاطاً مرجعية راسخة لكي يوجه نفسه

وفقها، ومن خلال هذا الإطار المقبول يمكن أن يقوّم المعلومات الواردة إليه، فيتقبلها على أساس أنها تتوافق مع هذا الإطار أو يرفضها لاختلافها معه، وقد يقوم الشخص بتغيير إطاره المرجعي الحالي لأنه غير ملائم، فيسعى إلى إحلال آخر أكثر إقناعاً بطريقة لاشعورية، وذلك من سياق تفاعله مع الآخرين. ومن خلال ضغط الجماعة التي تمثل قوة نفسية بالنسبة إليه كي يتوافق مع التوقعات المرتبطة بأدواره وأنماط سلوكه. فالتناقض بين فكرتين هو سمة أساسية لموقف المسايرة، إذ يخلق حالة من التوتر تفضي إلى الشعور بالخطأ، وهذا الشعور خاصية أساسية لتصور المسايرة، ويتعلق ذلك بتفسير الشخص للتنافر المعرفي؛ فإما أن يعيده إلى خطأ لديه أو إلى خطأ في المعايير المطروحة أو في فهم الموقف، وهكذا فإن الشخص إما أن يعلن عن حكمه المغاير ويظل مستقلاً عن اتفاق الجماعة، أو أن يساير حكم الجماعة، وقد ينسحب الشخص من الموقف تحت ضغط الجماعة.

وقد يسعى الفرد من خلال سلوك المسايرة إلى إشباع دوافع نفسية كالقبول والمكانة وتجنب النبذ الاجتماعي، أو الحصول على مكاسب شخصية، وقد تكون المسايرة وظيفة دفاعية وذلك كطريقة لخفض القلق وتجنبه.وقد يحقق الشخص رغباته من خلال استقلاله وعدم مسايرته.

أما المسايرة المضادة فإنها تشبع لدى الفرد رغبات عدوانية واستعراضية. وحين يكون الفرد منفعلاً بصورة تؤثر في عملياته العقلية فإن ذلك يجعله أكثر مسايرة لضغط الجماعة.

ويوضح ميرفن شو (Shaw) أن ثمة خمسة عوامل من المتغيرات غالباً ما ترتبط بالمسايرة لمعايير الجماعة وهي:

- بعض خصائص الشخصية لدى أعضاء الجماعة: كتقدير الشخص لذاته، وشعوره بالاستقلال، وثقته بذاته وجنسه وغيرها من الخصائص. فقد بينت دراسات آش (Asch، ١٩٥٢)، وكرتشفيلد (Crutchfield، ١٩٧٠) أن الإناث أكثر مسايرة من الذكور، ولعل ذلك يعود إلى طبيعة التنشئة الاجتماعية التي تحث الإناث على إظهار الطاعة والمسايرة للقيم والمعايير الخلقية والاجتماعية أكثر مما تحث الذكور. كما أن المسايرة تزداد مع مستوى العمر والنضج كجزء من عملية التنشئة التي يتعلم الفرد من خلالها معايير الجماعة.
- طبيعة المنبهات المثيرة للاستجابة في موقف المسايرة ونوعها: إن صعوبة الموقف المثير أو المهمة تؤثر في مدى دقة حكم المفحوص، وفي قابليته للخضوع.
- العلاقات الموقفية: كإدراك الشخص للموقف وما يرتبط به.
- العلاقات داخل الجماعة: كتكوين الجماعة وحجم الجماعة ومركز الشخص داخل الجماعة.
- الكفاءة في أداء المهمة: فكلما زادت قدرة الشخص على أداء مهمته، قلت قابليته للخضوع والمسايرة، كما بينت دراسة سامـلسـون (Samelson ،١٩٥٧)، وفاجن (Fagen، ١٩٦٣)، وكرتشفيلد (Crutchfield، ١٩٧٠).

فالمسايرة هي آلية نفسية يقوم بها الشخص بصورة واعية لتكييف حاجاته وأهدافه وفق معايير الجماعة التي ينتمي إليها، وابتغاء رضاها، أو رضا شخص ما، وإن درجة من المسايرة لا بدّ أن تكون موجودة لدى كل شخص، إلا أنها تختلف بين شخص وآخر، وذلك وفق

تنشئته الاجتماعية وطبيعة شخصيته وأهدافه وثقافته وظروفه وطبيعة المجتمع الذي ينتمي إليه. ولكن المسايرة المبالغ فيها والتي تتجلى بالرغبة في نيل رضا الآخرين واستحسانهم، تمثل شكلاً من أشكال الرياء الاجتماعي، وآفة اجتماعية ينبغي التخلص منها؛ لأنها تبعد الفرد عن فضيلة الصدق وتجعله يصب جل اهتمامه على تقييم الآخرين له. ولعل ذلك يتعلق بطبيعة التربية العائلية التي يتلقاها النشء والتي تتسم بسمات ترويض الشخصية على الخضوع والامتثال للسلطة، وما يمثّلها من عادات وتقاليد راسخة، تفرغ الشخصية من إمكانيات تفعيل الإبداع، كونه خروجاً عن التقليد ينبغي معاقبة صاحبه، مما يفقد الفرد الثقة بنفسه وإمكانياته التي يخشى دوماً ألا تتوافق مع ما يقوله الآخرون فلا يتقبلونه.

وإن تعليم الفرد منذ نعومة أظفاره فن مسايرة الآخرين وإرضائهم، والخضوع المطلق لأحكامهم، حتى وإن تم ذلك على حساب حقوقه المشروعة بالاستقلالية وإثبات الذات، يحدّ من اغتناء شخصيته بالخبرات الحياتية، ويقلّل من قدرته على مواجهة صعوبات الحياة، ويحيطه بدائرة من العجز والقصور.

نماذج المسايرة

عرض ويلز في نظريته سبعة نماذج نظرية وصفية للمسايرة بوصفها ظاهرة سلوكية منها:

١- النموذج الأول: تمثل فيه المسايرة واللامسايرة متصلاً ثنائي القطب.

٢- النموذج الثاني: تمثل فيه اللامسايرة والمسايرة واللامسايرة

ثلاث نقاط على متصل ثنائي القطب، ويمكن للفرد أن ينحرف عن المسايرة في اتجاهين مختلفين.

٣- النموذج الثالث: ويمثل المسايرة ضد الاستقلال.

٤- النموذج الرابع: ويشتمل على المسايرة والاستقلال والتحول.

٥- النموذج الخامس:ويشتمل هذا النموذج على ثلاثة أبعاد رئيسة هي المسايرة والاستقلال والمسايرة المضادة.

٦- النموذج السادس: يتضمن التمييز بين نوعين من اللامسايرة هما: الاستقلال والمسايرة المضادة. ويمكن التمييز بين المسايرة المضادة والاستقلال من خلال القصد الداخلي للشخص.

٧- النموذج السابع: ويشتمل هذا النموذج على أربع فئات ممكنة للاستجابة هي: الاستقلال، المغايرة، المسايرة، المسايرة التامة، إذ تكون المسايرة مقابل المسايرة المضادة. والاستقلال مقابل اللامسايرة (المغايرة).

توضح نظرية ويلز مفهوم المسايرة باعتباره رد فعل الشخص تجاه موقف الآخر أو الجماعة، وتتجلى في القبول المطلق لرأي الآخر، وهو في نماذجه السبعة يظهر المسايرة طرفاً مضاداً للاستقلال أو اللامسايرة أو المغايرة.

تعريف الخضوع (Submission)

هو سمة نفسية تقوم على قبول أحكام الآخرين وآرائهم والإذعان لإرادتهم، أو تنفيذ أحكام الجماعة والذوبان السلبي في تعليماتها، تتجلى في سلوك اجتماعي، وقد يكون الخضوع لشخص ما أو لجماعة.

والخضوع هو امتداح الآخرين وقبول قيادتهم واتباع التعليمات والتقاليد، وترك الآخرين يتخذون القرارات.

ويعرفه الحفني بأنه سلوك سلبي يتجلى في الإذعان للآخرين، وهو قريب من الخنوع الذي يعني الإرادة أو النزوع لتكييف السلوك لمصلحة الآخرين وإرادتهم.

ويعرف كذلك بأنه ميل الفرد لأن يكون خاضعاً لغيره، الذي يسيطر عليه، يوجهه ويتحكم فيه، على نحو ما يتصف به بعض الأزواج أو الزوجات أو المرؤوسين، وهي سمة سلبية تقلل من تلقائية الفرد وتقلل من تقدير الآخرين واحترامهم له، وقد تصل سمة الخضوع إلى حد المرض العصابي، إلا أنها لا تكون عامة لدى بعض الأفراد بل يتميز خضوع الواحد منهم لشخص، أو فئة، كالخضوع الشديد لرئيس العمل.

فالخضوع هو ميل شديد لدى الشخص لقبول آراء الآخرين وأحكامهم والثقة بها والتصرف وفقها، أكثر من الثقة في أحكامه وآرائه، ويتجلى في أشكال سلوكية منها عدم القدرة على إبداء الرأي، والانسحاب من مواقف القيادة والمسؤولية، وابتغاء رضا الآخرين. وتجدر الإشارة إلى أن كلّاً من الخضوع والمسايرة يتضمن الناحية السلوكية واللفظية، وإن الفرق بينهما هو فرق في الدرجة، فالشخص الخاضع قد قبل هذا السلوك بصورة شعورية أو لاشعورية، وهو تابع للآخرين سلوكياً ولفظياً. أما الشخص المساير فإنه غالباً ما يقوم بهذا السلوك عن وعي، رغبة في تحقيق هدف ما. وتعمل التنشئة الاجتماعية غالباً على تعزيز مسايرة معايير الجماعة وقبول أحكام الآخرين وقيمهم والخضوع لها، وذلك من خلال الخضوع لأشكال السلطة الهرمية السائدة في المجتمع والتي

يكتسبها الفرد بصورة لا شعورية من خلال ملاحظته لأشكال السلوك الاجتماعي. والخضوع يفرغ الشخصية من إمكانيات الإبداع والانطلاق وتحقيق الذات ويجعلها صورة مكررة لنموذج اجتماعي متسلط كالوالد أو الوالدة في الطفولة، والزوج أو الزميل أو شخص آخر في المستقبل.

المفاهيم ذات الصلة بالخضوع

السيطرة - الخضوع (Ascendance-Submission)

هي سمة نفسية تمثل متصلاً على طرفي نقيض؛ أحدهما رغبة الفرد وسعيه لأن يكون مسيطراً على الآخرين موجهاً لهم، والآخر أن يكون خاضعاً لسيطرة غيره وتوجيهه وقيادته. وكل فرد يحمل نقطة على هذا المتصل تمثل مدى توافر كل من النقيضين فيه.

ويتصف سلوك الشخص الخاضع بعدم قدرته على رد أذى الأنداد، والخضوع لرفاقه بشكل واضح وتنفيذ ما يقولونه دون جدال، لا يحاول المطالبة بحقوقه ولا يملك القدرة على معاملة الآخرين كما يعاملونه، لا يحاول مواجهة الآخرين بآرائه ويبقى دوماً في المؤخرة، ويتضمن الخضوع سمة التبعية والسلوك الاتكالي.

إن اتباع الوالدين أساليب القسوة المفرطة والتحقير وغيرها من أساليب إثارة الألم الجسدي والنفسي، والتي تؤدي إلى تدني الثقة بالذات وعدم القدرة على اتخاذ القرارات، تجعل الشخص يستسلم لإرادة الآخرين الذين يشعر أنهم أفضل منه وأكثر قدرة وكفاءة، فهو يثق بقدرات الآخرين أكثر مما يثق بقدراته.

الاستقلالية - التبعية (Independence-Dependence)

الاستقلالية سمة مناقضة للتبعية، وهي تتعلق بالمحافظة على احترام شخصية الفرد وعدم خضوعه لمحاولات سيطرة الجماعة والضغط عليه في أمور تمس كيانه وتعد من صميم خصوصيته وحريته الشخصية. وتبدأ هذه الحاجة بالظهور منذ الطفولة، وهي ضرورية لحياته الفردية والاجتماعية. ومنذ الأشهر الأولى يسعى الطفل ويبذل ما بوسعه للتخلص من التبعية لوالديه والاعتماد عليهما، ويبدي الرغبة في عمل بعض الأشياء بنفسه. وينمو هذا الإحساس بما يتناسب وعمره الزمني والعقلي. وفي مرحلة المراهقة تصبح الاستقلالية مطلباً نمائياً نفسياً هاماً، وحاجة انفعالية ينبغي إشباعها، فترى المراهق يظهر انزعاجاً من تدخل الوالدين والآخرين في شؤونه، وتراه يخطط بنفسه لحياته الشخصية.

أما التبعية فهي عملية استسلام الفرد لما تمليه عليه الجماعة من أشياء دون أي معارضة، مع أنه قد يكون غير راض عن تلك الأشياء في قرارة نفسه. وهنا يكون الذوبان السلبي في الجماعة؛ فلا يكون للفرد استقلاليته الشخصية، وتفقد الجماعة إسهاماته الإيجابية فيها، والتي لا تأتي إلا من خلال استقلاليته في إطار الجماعة.

إن التبعية الفردية تفقد الشخص ثقته بنفسه، فيساوره الشك كثيراً في قدرته على العمل باستقلالية، ومن هنا يفقد زمام المبادرة إلى القيام بأدواره سواء داخل الجماعة أم خارجها، مما يجعله يخضع نفسه للآخرين بطرق شتى، مقابل قيام الآخرين بتلك الأدوار، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، ونتيجة لهذا تتضح في سلوك الفرد مظاهر التبعية وإن كانت غير مستمرة، وذلك لمحاولاته غير الناجحة

مقابلة توقعات الآخرين منه. وقد حدد ميلون (Millon، ١٩٨١) بعض خصائص الأشخاص ذوي التبعية بأنهم أصحاب مزاج هادئ وغير منافسين، يتجنبون التوتر والصراع مع الآخرين والتصادم معهم، لديهم الرغبة في استمرار الوالدية والحنو من قبل الآخرين، كما أن صاحب الشخصية التابعة يشعر بعدم التماسك والضعف، لذا تتآكل لديه المهارات المختلفة اللازمة لأداء الأدوار المطلوبة منه ومن ثمَّ يزداد خوفه من الإخفاق في القيام بتلك الأدوار، فيلجأ إلى الاعتماد على الآخرين. ولذا فهو يتنازل عن آرائه ورغباته ليصبح تابعاً للآخرين الذين يحافظون له ظاهرياً على الاستمرارية بهويته العامة المتوقعة والمألوفة عند الآخرين.

وتقع على عاتق الوالدين تنمية شعور الأبناء بالاستقلالية منذ الطفولة، وتعزيز هذه السمة في مرحلة المراهقة، إذ يكون إشباع هذه الحاجة بالنسبة إلى المراهق ذا أولوية وأهمية. ولتحقيق ذلك يكون على الوالدين ترك الحرية للطفل لأداء الأشياء التي يمكنه القيام بها ويرغب في أدائها، كتركه يتناول الطعام بنفسه، والسماح له في المراهقة باتخاذ بعض القرارات والحوار معه حول مشكلاته، والسماح له بالتعبير عن رأيه، واحترام وجهة نظره. وإن تبعية المراهق للآخرين وسهولة الانقياد لهم قد تسببان له كثيراً من المشكلات السلوكية.

السلوك الاتكالي (Dependency behaviour)

الاتكالية هي سمة نفسية تنشأ من اعتماد الطفل على غيره في إشباع حاجاته، وتصبح شكلاً من أشكال السلوك الاجتماعي؛ فالسنة الأولى من حياة الطفل يكون عاجزاً فيها ومعتمداً على غيره بصورة

كلية، فهو يعتمد على الآخرين لإنجاز ما يريد، كما يعتمد عليهم للحصول على الحب والاهتمام وإثبات الذات في المواقف التي يريد فيها اختبار كفاءته. ويهدف هذا السلوك خلال الطفولة المتوسطة لتخفيف القلق، ويتجلى في:

١- البحث عن المساعدة.

٢- البحث عن التماس الجسدي.

٣- البحث عن التقرب.

٤- البحث عن الانتباه.

وإن المراهق الذي يظل معتمداً على غيره قد يعجز عن تحقيق الفطام النفسي، فتجده يطلب المساعدة والدعم من الآخرين، كأن يلجأ إلى والديه وزملائه لتأدية واجباته المدرسية، وغالباً ما يبتعد عنه الآخرون بسبب اتكاليته، ويظهر لدى هذا النوع من الأشخاص الخوف والقلق عندما يكون عليه أن يؤدي عملاً بمفرده، فيظهر لدى الطالب الخوف من الامتحان. ويستمر هذا السلوك غالباً في مرحلة الرشد فيسبب مشكلات تكيفية كثيرة.

دور الأسرة في تعلم الخضوع والمسايرة

يختلف أسلوب التنشئة التي يتبعها الآباء من حيث فرض سلطاتهم، تبعاً لوضعهم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي ولاختلاف سماتهم الشخصية. ويكون للأسرة العربية عموماً التأثير الأول في الفرد منذ الطفولة المبكرة، ويحتل الأب مركز السلطة فيها، في حين تقوم الأم بدور عاطفي وإشباع حاجة الأبناء إلى الحب. لقد وجدت

الزابر ونشفيك وزملاؤها(Wineshfeek et al) أن الأطفال الذين كانوا يتسمون بالخضوع لآبائهم، يتقبلون فيما بعد الإيديولوجيات التسلطية. ويفترض موريس شتاين(Shtine) أن زيادة الخضوع للآباء تجعل من الصعب على الفرد أن يغامر فيظل يتعامل مع ما ثبتت صلاحيته، ويتجنب ما هو جديد.

إن أساليب التنشئة القائمة على التسلط تعلم الأفراد الخضوع للأقوى، وتعلمهم أيضاً التسلط والعدوان على من هم أضعف منهم. وقد يعتدي الأطفال على الآخرين لإخضاعهم لسيطرتهم، ويحدث ذلك بسبب تقمص دور الأب في الأسرة. وقد يزيد تحكم العائلة في سلوك الفتاة بالمقارنة مع الذكور؛ فتفرض رأيها عليها في الملبس والتصرف والحاجات الشخصية واختيار الأصدقاء ويصل الأمر إلى حد اختيار نوع الدراسة أو العمل أو الزواج، إلا أن الولد يقع أحياناً تحت طائلة التسلط.

وإن الإفراط في استخدام السلطة في التنشئة يعلم الأولاد الخضوع والسلوك الاتكالي، وما تزال هذه السمة السلوكية موجودة حتى بين المتعلمين، كما أظهرت **دراسة (نصار، ١٩٩٨)** التي أجرتها على المجتمع اللبناني، والتي بينت عدم وجود فروق دالة بين سلوك المتعلم الجامعي ونظرته إلى ذاته، بالمقارنة مع مثيله الأمي وشبه الأمي. ولعل ذلك يعود إلى قوة تأثير أساليب التنشئة الاجتماعية التي تتبعها الأسرة والتي تحث على الخضوع، وتكمل المدرسة هذا الدور من خلال طرق التعليم التقليدية التي تعمل على تلقين المعلومات للطالب وإلقائها عليه دون إعطائه فرصة كافية للتفكير الخلاق والمبدع. كما أن مظهر الحداثة في السلوك ليس إلا واجهة تخفي في ثناياها واقع ارتباط اتكالي مفرط، إذ بدت مواقفه الظاهرية التي تتسم

بالحداثة والتطور مرتبطة وبشكل ازدواجي تجاذبي مع مفاهيم تقليدية جامدة، كتبني مفاهيم تقليدية بالية، حول العلاقة بين الجنسين واستمرار مسؤولية الرجل عن المرأة وغيرها من الآراء والاتجاهات التقليدية.

وبينت دراسة (**عبد الرحمن والشناوي، ١٩٩٨**) أن الذكور لديهم استقلال أكبر من الإناث، وأن الاستقلال الوظيفي لدى أفراد العينة المنتمين إلى الريف أعلى منه لدى أبناء الحضر، ولعل ذلك يعود إلى طبيعة التنشئة الأسرية التي تلزم الفتاة عادة بالمفروضات والعادات أكثر من الذكور. واستقلال أبناء الريف يمكن تفسيره بطبيعة الحياة الريفية التي تستدعي تكليف الأبناء بالعمل الزراعي والمشاركة في الحياة الاجتماعية منذ سن مبكرة، مما يعزز شعورهم بالاستقلال.

وتؤثر سمة الخضوع والمسايرة في سلوك المراهق، وفي مختلف أبعاد شخصيته، وحتى في تحصيله الدراسي، وهذا ما أثبتته الدراسات القليلة التي تناولت هاتين السمتين بالبحث، فقد بينت دراسة (Alvarez، MarincoC، ٢٠٠١) أن الخضوع مع التغذية الراجعة الموجودة في سجل التبدلات الكهربائية، والتي حفظت من قبل الطلاب، قد أثرت في طرق التعلم والتعليم لستة طلاب هم على وشك التخرج في مقرر طرائق التعليم.

لقد بينت دراسة (Chen&Shammy، H.M، ٢٠٠٠) أن إدراك الطلاب لنماذج التواصل القائمة على المسايرة والمحادثة لدى الأغلبية، وإجماع الأسر على أهمية ذلك، قد جعلهم يقررون كشفاً أعمق وأكثر انفتاحاً للذات أمام آبائهم. وبينت نتائج دراسة (Bouchard، ٢٠٠٠) أن ٨٨٪ من الصبيان و٤٤٪ من البنات وافقوا على مسايرة نمط الدور الجنسي التقليدي، وأن مسايرة النمط الجنسي

التقليدي قد ارتبطت سلباً مع مستوى التحصيل الأكاديمي للطلبة، ومع مستوى التنشئة الوالدية.

وتؤكد هذه النتائج الأثر السلبي لسمة الخضوع في شخصية المراهق، والتي تتبدى جلية في تدني تحصيله الدراسي، ولعل ذلك يعود إلى أن الخضوع يقتل الإبداع والتفكير الحر؛ لأنه يجعل الشخص اتكالياً وقليل الثقة بقدراته، ينتظر من يؤدي عنه واجباته المدرسية، مما يؤثر سلباً في تحصيله. ولا شك أن تشجيع الأهل والمعلمين للطالب الاتكالي كي يعتمد على نفسه بتكليفه ببعض المهام، يساعده على الخروج من دائرة السلبية والخضوع تدريجياً.

دور جماعة الأقران في تعلم الخضوع والمسايرة

تأخذ جماعة الأقران أهمية خاصة بالنسبة إلى المراهق، الذي يميل إلى تكوين الجماعات والشلل والصداقات والفرق الرياضية وغيرها، ويشتد ولاء المراهق لأقرانه، ومن خلال هذا الانتماء يتعلم الطاعة والخضوع للقوانين ومسايرة الجماعة، التي يحقق من خلالها كثيراً من حاجاته النفسية كتحقيق احترام الذات والتقبل الاجتماعي وغيرها...

فقد بينت دراسة (Darcy، A، ٢٠٠٠) أن ضغط القرين ومسايرته ينبئان بقوة بالسلوك الخطر أكثر من المسايرة العامة.

دور المدرسة في تعلم الخضوع والمسايرة

تعد المدرسة المؤسسة الاجتماعية الثانية بعد الأسرة التي تؤدي دوراً هاماً في حياة المراهقين وفي تشكيل مستقبلهم، وتستطيع المدرسة عن طريق المواد العلمية وأسلوب المعاملة، والعلاقات

الإنسانية السائدة والأنشطة المختلفة أن تساعد المراهقين على تحقيق مطالب النمو، وأن تجنبهم كثيراً من الصراعات التي تحفل بها هذه المرحلة، خصوصاً أن طبيعة العملية المدرسية تقوم على تنظيم مواقف جماعية داخل الفصل أو خارجه.

وعن طريق التفاعل بين أفراد الجماعات المدرسية تستطيع المدرسة أن تؤثر في سلوك المراهق. ويستطيع المدرس أن يساعد المراهق على فهم طبيعة الصراع الذي يمر به من أجل الوصول إلى الاستقلال، وتستطيع المدرسة عن طريق إعداد برامج خدمة البيئة أو خدمة المجتمع أن تدرب المراهقين تدريباً عملياً على تحمل مسؤولياتهم الجماعية المستقبلية، وقد لجأت بعض المدارس في المجتمعات المتقدمة إلى ربط المناهج المدرسية وخطة الدراسة بالمصانع والمؤسسات الإنتاجية، وفتحت بذلك فرص العمل لبعض الوقت أمام المراهق، فضلاً عما تحققه هذه البرامج من تدريب عملي على الاستقلال المادي والنفسي عن الأسرة.

ولكن التربية المدرسية بصورتها التقليدية الحالية تبدو متشابهة مع تلك الممارسة في البيت، فهي عموماً تقليدية الطابع من حيث مناهجها والكتب المدرسية المعتمدة، ومن حيث العلاقة القائمة بين المعلم والتلميذ؛ إذ تركز في المعرفة والتلقين والحفظ الصم للمعلومات أكثر من الفهم، مما ينعكس على مستوى النمو العقلي والمعرفي للتلميذ، وعلى مستوى تطور قدراته الفكرية وعلى تطور شخصيته بصورة عامة.

فقد أثبتت دراسة يونس (١٩٩٨)، التي أجريت في لبنان بهدف المقارنة بين المدارس التقليدية والأخرى التي تعتمد الطرق التربوية الحديثة ما يلي:

- أن نسبة (٨٨٪) من طلبة المدارس ذات الطرق التقليدية لديها تأخر سنة أو سنتين على مستوى الفكر الإجرائي، مقابل(٧٪) لدى طلبة المدارس الحديثة.
- أن نسبة (٥٢٪) من طلبة المدارس الحديثة قد سجلوا تفوقاً يعادل السنة أو أكثر على مستوى التفكير الإجرائي، مقابل (١٢٪) من طلبة المدارس ذات الطرق التقليدية، وقد سجل (٣٤٪) في المدارس الحديثة مستوى تطور طبيعي.

وقد بينت دراسة زريق(١٩٩٦) التي أجراها في الأردن على طلبة الحلقة الثانية من التعليم الأساسي عن وجود أثر واضح لدور عمليتي التعلم والتعليم المدرسي في زيادة الوعي القيمي لدى الطلبة، والذين حققوا ارتفاعاً في درجاتهم على اختبار الوعي القيمي الاجتماعي بعد تطبيق الطريقة المتجددة والموجهة نحو اكتساب الوعي القيمي.

مما يُلْزِم بإعادة نظر شاملة وجذرية في مناهج الدراسة، وطرق التدريس، وبخصوص واقع المدارس وعملية التعليم والطرق المعتمدة ضمن إطارها، وتنظيم خطة تربوية متكاملة وجديدة، تنطلق من مقومات التربية الحديثة ويكون محورها الأساسي التطوير الفكري والإبداعي للإنسان.

الفروق بين الجنسين في المسايرة والخضوع للسلطة

تتصف الإناث عادة بأنهن أكثر خضوعاً وأقل عدواناً من الذكور؛ فالعناد والعدوان من بين المتغيرات الأساسية التي يمتاز بها السلوك الذكري عن الأنثوي، وهذه الفروق الجنسية هذه تتكون منذ سن مبكرة، إذ يظهر الذكور عدواناً جسدياً وسلوكاً سلبياً أكثر مما تظهر

openkandil.com

الإناث، وتعد هذه النتائج عامة في كثير من المجتمعات. فالأنثى أكثر رغبة في وجود شخص يحميها، والنساء بحاجة إلى الإحساس بالأمن أكثر من الرجال. كما أن الأطفال الذكور يقلدون دور الأب، وتقلد البنات دور الأم، ومن جملة ما يقلدونه العدوان، إذ يقدم الأب النموذج الأول للعدوان عند الأولاد، ولأن الأب لا يكون النموذج المناسب جنسياً للسلوك عند البنات يكون تأثيره ضعيفاً في تعليمهن العدوانية، ومن ثمَّ يتعلم الذكور العدوانية، في حين تتعلم الإناث الخضوع والمسايرة من الأم.

ترى بعض النظريات أن العدوانية هي غريزة تولد مع الإنسان، وتساعده في حماية نفسه من مصادر التهديد التي يتعرض لها. ويظهر العدوان سلوكاً لدى الجنسين، ولكن أساليب التعبير قد تختلف بين الذكور والإناث، وترتبط العدوانية ارتباطاً موجباً بالخضوع؛ أي إن زيادة العدوان لدى الشخص تدل على ارتفاع درجة الخضوع لديه. فالشخص العدواني عادة يظهر العدوان على من هم أضعف منه، ويبدي الخضوع لمن يعدهم أقوى منه. ولأن الرجل يعدُّ الأقوى بالنسبة إلى المرأة، فإنه يظهر سلوك العدوان في حين تظهر هي الخضوع والمسايرة.

الفروق في المسايرة والخضوع للسلطة تبعاً لسمات الشخصية

يرتبط تلقي الأبناء للسلطة الوالدية وفق اختلاف سماتهم الشخصية وطبيعة الخبرات التي يتلقونها. وقد ربطت بعض وجهات النظر بين الخضوع والعدوان؛ ومن أهمها وجهة النظر الفرويدية، إذ فسر فرويد كيفية اكتساب الخضوع للسلطة المعاقبة والعدوان على من هم أضعف، بأن الأنا الأعلى في أثناء مراحل نموه يبدو منحازاً في

اختياره، فلا يأخذ عن الوالدين إلا قسوتهما وصرامتهما ودورهما القامع القاهر؛ أي إن الأنا الأعلى يمكن أن يعد حالة موفقة من حالات التقمص مع الهيئة الوالدية، كذلك يتقمص الأنا الأعلى الوالدين والمربين والمعلمين وكل من يرى فيهم نماذج مثالية، فالأنا الأعلى ينشأ عن التأثير الذي يمارسه الآباء والمربون. ويظهر ذلك جلياً لدى الأطفال في مواقف اللعب، حيث يميل مستوى العدوان إلى الزيادة عند الذين يميلون إلى الخضوع، كلما زادت مدة اللعب.

وتتبنى آنا فرويد الفكرة ذاتها في تفسير العدوانية وارتباطها بالخضوع عند سيجموند فرويد، التي تبين أن تطور الأنا الأعلى لدى الفرد يمر عبر تقمص المعتدي، وهي مرحلة ضرورية لتحقيق النمو السوي. إذ يدمج الطفل صفات القائمين على تربيته ويتوحد بها، مما يساهم باستمرار في تبني خصائصهم وآرائهم، وتشكيل الأنا الأعلى اللازمة لنموه وتطوره.

كما أن خضوع الفرد ومسايرته لأشكال السلطة الوالدية أو المدرسية أو الاجتماعية، واستعداده للقيام بما يتناقض مع ما يؤمن به من أنماط السلوك، سمة يتم اكتسابها في مراحل مبكرة من الحياة. وغالباً ما يكون الخضوع واجباً تجاه هذه المؤسسات ومسايرتها شيئاً من الوفاء والنظام والتضحية، وهذه الصفات كلها تجعل الشخص يذوب في بنية المؤسسة. فبعض الأشخاص يأخذون بالثأر دون إيمان منهم بذلك، وإنما استجابة للعادات والتقاليد.

ونحن نتعلم استجابة الخضوع للسلطة وتوجيه العدوان للأضعف، عندما تفرض هذه السلطة سيطرتها علينا، منذ المراحل المبكرة من حياتنا، و تظهر هذه الاستجابة في المراحل العمرية المختلفة، كما أننا نتعلم أيضاً استجابة الخضوع عن طريق ملاحظة هذه السلطة وهي

obeikandl.com

تفرض سيطرتها وعدوانيتها على الغير، وتتم هذه العملية عن طريق ملاحظة النماذج التي تقوم بالعدوان خاصة إذا كانت هذه النماذج ذات تأثير، مثل الوالدين أو القدوة أو الأشخاص الذين نحبهم والذين لهم سلطة علينا.

إننا نتعلم شيئين رئيسين؛ أولهما الخضوع والمسايرة لمن لا نستطيع رد عدوانهم، وثانيهما أن الأقوياء قادرون على توجيه العدوان للأضعف منهم.

وهكذا كلما تعرض الفرد للعقاب زاد خضوعه وانصياعه في الكبر وزادت مسايرته لمن هم أقوى منه وأكثر سلطة عليه، ولكن في الوقت نفسه يزيد عدوانيته على من هم أضعف منه، فأساليب التنشئة التقليدية التي تتبناها الأسرة والمدرسة، والتقاليد والعادات والقوانين، التي تستخدم العقوبة بأشكالها المختلفة وسيلةً أساسية لنقل حضارة الماضي، تؤدي إلى زيادة الخضوع والانصياع والمسايرة وكذلك العدوان بين أبنائها.

إلا أن اختلاف السمات الشخصية للأفراد وعامل الجنس، يجعل استجابة الخضوع أو المسايرة متفاوتة بين الأفراد.

وقد بينت **دراسة (محمود، ١٩٩٠)** أن جميع الطلاب انصاعوا لسلطة المجرب عندما أمرهم بتوجيه العدوان لحيوانات التجربة، وأنه لا فرق بين الجنسين في مدى خضوعهم لسلطة المجرب، وأن الخضوع لسلطة المجرب و توجيه العدوان لحيوانات التجربة شامل بغض النظر عن اختلاف سمات شخصية الأفراد.

فالخضوع سمة نفسية، يظهر في شكل سلوك، يكتسبه الفرد بصورة لا شعورية خلال مختلف مراحل نموه استجابةً لأشكال السلطة التي يخضع لها، كالسلطة الوالدية والمدرسية والمؤسسات الأخرى،

openkand.com

كما يكتسبه من خلال ملاحظته لتلك السلطة. وتظهر الفروق الفردية بين الأفراد في مدى اكتسابهم لهذه السمة تبعاً لطبيعة شخصياتهم، واختلاف خبراتهم. وإن اكتساب هذه السمة يعد ضرورياً لتشكيل بنية الأنا الأعلى التي يطورها الشخص، لاستخدامها فيما بعد في دوره المطلوب أداؤه في العمل والأسرة.

ويرتبط تعلم استجابة الخضوع بمشاعر الخوف، إذ يظهر الفرد الخضوع للأشخاص والمواقف التي تشكل تهديداً له، كتلقي العقاب بأشكاله المختلفة كالعقاب البدني أو فقد الحب والرعاية والمكانة، وغيرها من المكاسب المادية والنفسية التي يسعى الشخص إلى الإبقاء عليها. وقد يختلف مدى الخضوع والمسايرة وفق أهمية الدافع بالنسبة إلى الفرد، ووفق طبيعة العلاقة التي يرتبط بها بالآخر، ووفق سماته الشخصية.

صورة الأب الغائب والخضوع والمسايرة لدى المراهق

تؤدي الدوافع دوراً هاماً في حياة الإنسان النفسية والاجتماعية والعملية، وتشكل تلك الدوافع جزءاً لا ينفصل عن كتلته الحيوية، لهذا فإن تحقيق الفرد لأقصى إمكانياته لا يكون إلا عن طريق الحياة الاجتماعية التي تمده بالقوة المحركة لمتابعة الحياة.

ويحتاج النشء إلى وجود الوالدين لإشباع حاجاته المادية والنفسية في مختلف مراحل نموه، كما يحتاج إلى السلطة الوالدية حاجة نفسية ووجدانية، لمساعدته على تنظيم حياته النفسية والاجتماعية، وليتبين المواقف التي تحظى بتأييد الوالدين وتنال رضاهما، والأخرى التي ينهيان عنها ويمنعانها. وهذه السلطة الأبوية

تساعد الأولاد على تشرب القيم الأخلاقية والمفاهيم الاجتماعية، وتكفهم عن الانطلاق وراء النزوات الطفولية، وتساعدهم على اكتساب التنظيم الداخلي اللازم لعمليات التكيف الاجتماعي. وإن عدم وجود هذه السلطة أو ممارستها بطرق خاطئة زيادة أو نقصاناً، هو من أهم العوامل التي تسبب الشعور بانعدام الأمن لدى الأولاد، وتبذر في نفوسهم الخوف والفزع.

فتعلم الأبناء الطاعة للخالق والحكماء وكبار السن، وتقبل التعاليم الدينية ومسايرتها، هي أبرز ما ينظم علاقات البشر بعضهم مع بعض، وهذه الطاعة تكتسب تدريجياً لأن الطفل يتخوف في البداية من سلطة الإكراه؛ أي سلطة التحكم في تصرفاته وتوجيهها، ثم يذوب هذا التخوف شيئاً فشيئاً ليأخذ صفة الطاعة والخضوع.

ويبدأ النشء بتعلم مبادئ الطاعة والخضوع، منذ الطفولة الأولى من خلال نموذجين بشريين: نموذج يأمر فيطاع، ونموذج يمتثل ويطيع، وهكذا فإن الصراع ينشأ لدى الطفل بين طاعة رغباته الداخلية، وطاعة مفروضات العالم الخارجي التي تلغي الرغبة الأولى. ويميز الفيلسوف الاجتماعي ميتسرليخ (Metserleeh) بين طاعة الغرائز والطاعة المكتسبة وطاعة الضمير الاجتماعي، وطاعة الأنا. ويخضع الطفل لهذه المستويات كونه ينتمي إلى أسرة يشكل فيها وجود الأب ذلك المروض الأساسي للغرائز المسيرة لأعماقه. ويقلل غياب الأب من تدريبه على الضبط والتوجيه لغرائزه ودوافعه، كما يفقده إحساسه بالقوة والتحدي في أعماقه التي يكتسبها من التوحد مع شخصية الأب. فتحل محلها مشاعر الوحدة وفقدان السند، مما يدفعه إلى تخزين شحنة من التحدي والرغبة في التفوق للتخلص من عقدة النقص هذه.

وإن عجز النشء عن فهم معنى الخضوع للضوابط وطاعتها بصورة كافية في ظل غياب الأب قد يهيئ الأسباب لانحرافه وظهور مشكلات سلوكية وتحصيلية لديه.

ويعد الاستقلال العاطفي والمادي مطلباً أساسياً يسعى المراهق إلى تحقيقه في هذه المرحلة، ويدفعه النضج إلى محاولة الاعتماد على النفس واتخاذ قراراته بنفسه. وقد يقف كثير من الآباء والأمهات حجر عثرة في طريق تحقيق الدافع إلى الاستقلال، بحجة الخوف على المراهق، وقد يدفعهم حبهم لأبنائهم وقلقهم عليهم إلى المبالغة في فرض القيود على سلوكهم. ويختلف المراهقون في مواجهة الصراع بين الاستقلال أو الاعتماد على الأبوين؛ فقد يخفق بعضهم في تحقيق الاستقلال فيخضع لسلطة الأبوين خوفاً من فقدان الدفء العاطفي والأمن النفسي، والشعور بالذنب لمجرد التفكير في الخروج عن طاعتهما، ويعجز مثل هؤلاء المراهقين عن تحقيق النضج الانفعالي والفطام النفسي مما يدفعهم إما إلى الثورة والعصيان والتمرد على سلطة الوالدين، وعلى أشكال السلطة كافة، أو الخضوع السلبي والمسايرة التامة للأحكام المفروضة عليهم. فالأب القاسي المدقق، كثير القيود، غير المنطقي في تصرفاته والذي يبالغ في استخدام السلطة وفرض الخضوع والطاعة على أفراد أسرته، عن طريق التخويف أو التهديد، يقف حجر عثرة في طريق تحقيق الأبناء للاستقلال؛ إذ يحتاج الأبناء في هذه المرحلة الهامة إلى وجود أب متفهم، وسلطة عادلة، لمساعدتهم على التكيف مع المعايير الاجتماعية، مع تحقيق الاستقلال تدريجياً.

وقد وجد (تين) في دراسته أن الصغار الذين أبدوا ثقة كبيرة بوالديهم، قد حققوا تكيفاً أفضل من أندادهم ضعيفي الثقة، وذلك

عندما حدد التكيف بالخضوع والاستقرار العاطفي وسمات الطبع المستحسنة والالتزام بقوانين المدرسة، واستخلص (تين) أن المراهق الواثق بوالديه أميل إلى أن يكون خضوعياً أكثر من نظيره المتشكك بهما، وأن معظم المتمردين في المدرسة ينحدرون من أسر تغلب فيها علاقات الشك بين الوالدين.

ويقلل غياب الأب من نفوذه ومن تأثيراته الأخلاقية على الأولاد، مما قد يخلق شعوراً أقل لديهم بضرورة الالتزام بقوانين الأسرة والخضوع لأوامرها ونواهيها، وقد يلجؤون إلى التحلل من الضوابط الأخلاقية، إذ يصعب على الأم وحدها أن تسيطر على أبنائها المراهقين، فكلما زاد سن النشء زادت مقاومته، لذا يعدُّ وجود الأب ضرورياً إلى جانب الأم، كي يقدما للأبناء الانضباط المقرون بالحب والحنان.

فقد أظهرت دراسة ديفيد وإلسون (Duvand and Aelson، ١٩٦٦) أن انفصال الوالدين بالطلاق يؤثر في سلوك الأبناء الذكور الذين يبدون أقل ضبطاً للنفس وأقل نضجاً وأقل مسايرة للأقران.

إن غياب الأب يحرم الفتاة من العلاقة الوالدية التي تؤدي دوراً هاماً في تشكيل شخصيتها الأنثوية بدءاً من مرحلة ما قبل المدرسة وحتى المراهقة، فالبنات اللواتي يفتقدن العلاقة الحميمة مع آبائهن يتسمن بالاتكالية والخضوع، ويظهر ذلك واضحاً في مرحلة المراهقة، حين ستجد الفتاة غالباً صعوبة في تقبل دورها الأنثوي، مما يزعزع مفهومها عن ذاتها وعن شخصيتها الأنثوية.

ويحتاج المراهق إلى وجود الأب إلى جانب الأم كي يساعده في تعلم ضبط ذاته والتحكم في انفعالاته وتأجيل إشباع رغباته وتصعيدها. كما يحتاجه لتحقيق الحاجة إلى الانتماء، التي تنشأ من

الصراع بين رغبة المراهق في تحقيق استقلاليته وحاجته إلى الاعتماد على الأبوين، ومن خلال إشباع هذه الحاجة يمكن تعليم المراهق الولاء للوطن وتمثل معايير الأسرة وجماعة الأقران والمبادئ الاجتماعية والقيم الإنسانية. وهذه الحاجة هي التي تدفع المراهق إلى أن يكون فرداً في مجموعة أو تنظيم، مما يترك آثاراً إيجابية في سلوكه، فيخلق فيه روح الجماعة والالتزام بقوانينها والإذعان لرأيها ومسايرة كل ما تراه وتقرره. ومن شأن ذلك أن يخلص المراهق من الأنانية والأثرة الفردية المتسلطة ومن العزلة، وأن يصوغ في حياته هدفاً إنسانياً يسعى إلى تحقيقه ويحقق من خلاله معنى الحياة.

obeikandl.com